

# الحالة الثقافية في قطر

مرزوق بشير بن مرزوق

كاتب وباحث

الدوحة

\*ورقة قدمت في لقاء الاثنين (٢٠١٢/١٢) بتاريخ ٦ فبراير ٢٠١٢

تمهيد:

الكتابة عن الثقافة وأحوالها ليس بالأمر اليسير فهي عملية صعبة ومعقدة، لاتساع مجالها وتداخل تعاريفها، وامتدادها عبر التاريخ الذي بدأ بأول وجود للإنسان على الأرض، الثقافة هي الإنسان بأبعاده الإنسانية والنفسية والمادية والاجتماعية، فهو يصنع الثقافة ويبدعها، وهو أيضا يتلقى الثقافة من بيئته القريبة والبعيدة ويكيفها لمصالحه الاجتماعية، الثقافة مرتبطة بالتعلم أكثر منها بالتعليم، كما إنها العامل المشترك بين الأمي وبين المتعلم. والثقافة نظام مفتوح لا حدود له ولا نهاية. ولأن الثقافة سبقت كافة مجالات النشاط البشري فلقد راكمتمفاهيم كثيرة يحتاج الباحث إلى تفكيكها وإعادة تركيبها بما يناسب غايات بحثه. ويرجع أغلب الباحثين بأن مشاكل العالم العربي ليست مشاكل سياسية أو اقتصادية في المقام الأول بل إلى أزمة أو احتقان ثقافي، فأى تغيير في المجتمع لا بد له من مرجعية ثقافية تسانده وتدعمه وتعطيه الشرعية، وتستمد هذه المرجعية أصولها من تراكم الخبرة الإنسانية على مدى التاريخ، وفي حديث صحفي أجرته صحيفة الوسط البحرينية في عددها (٩٥٩) من أبريل ٢٠٠٥م، يؤكد السيد حسين فضل الله بأن الأساس في التنمية هو الفعل الثقافي، قبل أن يكون تجلياً أو اقتصاديا أو ماديا، وقبل أن ينطلق كحركة سياسية، وكلما كانت الثقافة حيوية أكثر وغير محاصرة بقوة وأغلال التخلف، وكلما كانت منفتحة فإنها تقود إلى تنمية متوازنة وسليمة على مختلف الصعد.

وهذه الورقة أقرب إلى مداخلة تستطلع الحالة الثقافية في قطر منها إلى ورقة بحثية تعتمد على أدوات البحث العلمية المتعارف عليها في هذه الحالات. فهي تستقرئ الحالة من موقع المراقب لمسيرة النشاط الثقافي الحديث في قطر، الذي يواجه مثل غيره من الباحثين

صعوبة توفر المراجع والدراسات حول هذا الموضوع وبالتالي اعتمد على خبرته وانطباعه المباشر لهذا الشأن.

والأمر الآخر الذي يواجهه من يتناول الكتابة عن الثقافة هو صعوبة الفصل، بين ثقافات الشعوب حيث تتولد هذه الثقافات بالاحتكاك والتداخل وانتقال الأفكار والعادات فيما بينها، والحالة القطرية غير مستثناة من ذلك حيث تتشكل ثقافة أهلها الخاصة من الثقافة العربية والإسلامية والإنسانية، ويظهر ذلك في آدابهم وملابسهم وطعامهم وأغانيم وغيرها من المسائل الثقافية.

ونظراً لارتباط الثقافة القطرية بطريقة مباشرة بالثقافة العربية، فلقد واجهت ذات المعوقات والصعوبات والتحديات التي تواجهها الثقافة الأم، وبالتالي لا يمكن فصل تحليل وتشخيص الثقافة القطرية بمعزل عن ثقافتها العربية الأصلية، وما يقع على الثقافة العربية من إيجاب وسلب، سينسحب بالتالي على الثقافة القطرية.

### مدخل لتعريف بعض المصطلحات

لقد اختلف تعريف مصطلح الثقافة وذلك باختلاف المنطلق والرؤية الذي يُنظر منها إلى هذا المفهوم. ويقر الباحثون أنّ تعاريف الثقافة تنطلق حسب وجهة نظر مدرستين.

المدرسة الغربية التي ترى أن الثقافة ثمرة فكر، والمدرسة الماركسية التي ترى أن الثقافة جوهرها ثمرة المجتمع. ولقد اعتمد معظم الباحثين في مجال الثقافة التعريف الذي جاءت به اليونسكو وهي "جميع السمات الروحية والمادية والفكرية التي تميز مجتمعا بعينه أو فئة اجتماعية بعينها، وتشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، وتمنح الثقافة الإنسان القدرة على التفكير في ذاته

وتجعل منه كائناً يتميز بالإنسانية المتمثلة بالعقلانية والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي. وعن طريقها يهتدي إلى القيم ويمارس الاختباء. وهي وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته كمشروع غير مكتمل وإعادة النظر في إنجازاته والبحث عن مدلولات جديدة، وإبداع أعمال يتفوق فيها على نفسه، ولا تختلف التعريفات العديدة عن الثقافة عن تعريف اليونسكو، إما نقلاً عنه أو تعديلاً محدوداً عليه.

### الثقافة:

مصطلح الثقافة، كما جاءت به العديد من الأدبيات الثقافية يعود إلى الإقرار أنه ليس هناك ثقافة واحدة سائدة. وهي وسيلة أكثر منها مصطلح، حيث يُعرف الثقافة بالعملية التي تكشف عن اللاتكافئ بين ثقافة القوي المهيمن، وثقافة الضعيف المهيمن عليه، حيث يقوم الطرف القويبتتميط وتكييف ثقافة الطرف الأضعف تحت ما يُسمى فكرة الثقافة، وعن طريقه الثقافةيجري فرضنمط ثقافي على ثقافة معينة. وعادة ما يؤدي الثقافة إلى مفهومين متداخلين مع بعضهما، وهما مفهوم الإحلال الثقافي ومفهوم التبعية الثقافية. ويعني الإحلال الثقافي هو استبدال ثقافة ما بثقافة أخرى سواء كانت ثقافة غريبة عن المجتمع أو عقيدة دينية أو سياسية وهو يعني أيضاً تحويل ثقافة الآخر إلى نسخة كربونية ومطابقة له، سواء لأسباب اقتصادية أو سياسية أو عقائدية، وعادة ما يكون المدخل إلى الإحلال الثقافي باستبدال اللغة القومية بلغة أخرى ومنها إلى بقية الأشكال الثقافية، وربما يسوقالإحلال الثقافي على أساس حوار بين الثقافات لكنه ما ينتهي عادة إلى إحلال وفرض ثقافة على أخرى.

والمفهوم الآخر المرتبط بالثقافة هو التبعية الثقافية وتعني انقياد ثقافة أمة إلى ثقافة أمة أخرى لأسباب اجتماعية أو علمية.

## الواقع الثقافي في قطر

عادة ما يميز الباحثون بين ثلاثة أنواع من الثقافة السائدة في المجتمع الخليجي:

١. الثقافة الأصلية التي سادت ما قبل ظهور النفط؛
٢. الثقافة التي هيمنت بعد ظهور النفط وهي ثقافة وافدة؛
٣. الثقافة التوفيقية بين الثقافتين الأصلية والوافدة.

لقد ارتبط الإنتاج الثقافي في مرحلة ما قبل النفط بعلاقة الإنسان المباشرة حينها بالمهن التي كان يمارسها من صيد وغوص وقنص ورعي وزراعة، فأنتجت الغناء والرقص والحرف اليدوية، والسلوك الاجتماعي المترابط والمتجانس بعضه ببعض، وحتى تلك الثقافة المستوردة التي كانت تحتمها ظروف السفر والتجارة، كان الإنسان قادرا على تطويعها وتكييفها للثقافة الأم، أما الثقافة التي سادت ما بعد ظهور النفط كما يشير لها الباحث السعودي فضل الأيوبي في بحثه بعنوان "دور الثقافة في التنمية الاجتماعية" والمنشور في مجلة جامعة الملك سعود عام ٢٠٠٤م، هي ثقافة جديدة وضعيفة الصلة بتلك الثقافة التي طبعت السكان بطابعها ما قبل النفط، وهي ثقافة في مجملها وافدة حملتها إلى الخليج التطورات الاقتصادية والاجتماعية، والتي تمثلت في دخول تقنيات جديدة، والخبراء العاملين فيها والتكنولوجيا المستوردة التي حملتها خصائص الثقافة التي أنتجتها.

لقد تمكنت ضخامة وكم الثقافة المستوردة من تعطيل الإنتاج الثقافي لإنسان هذه المنطقة وأصبح غير قادر على مواجهته أو حتى تكييفه بسهولة لمتطلباته الحياتية، وتمكنت الثقافة الجديدة المستوردة من التأثير على نمط وسلوك الحياة في هذه المنطقة، وتحولت الثقافة إلى تراث يحتفى به ولا يمارسه بطريقة اعتيادية وطبيعية.

لقد استمدت الثقافة القطرية، مثلها في ذلك مثل دول الخليج الأخرى، ثقافتها من البيئتين البحرية والبرية، وهاتان البيئتان، وإن بدتا متباينتان، إلا أنهما عند القطريين تمثلان بيئة واحدة تنفتح الأولى على الثانية، وتنفتح الثانية على الأولى فلقد عرف القطريون بيئة البر والبحر في آن واحد، فتقافة البحر وثقافة البر حاضرتان دائماً عند القطريين، لاسيما في السلوك، والتصرف، والإبداع، فعندما تنتهي مواسم البحر يتوجه القطريون إلى مواسم البر، وقد ساعدت مساحة قطر الصغيرة على تقصير المسافات بين أطرافها مما ساعد انتقال مواطنيها بيسر وسهولة بين مناطقها، ولقد ساعد هذا الانتقال والتواصل على التداخل والاندماج بين السكان، كما أن قرب خصائص وتجارب الثقافة البحرية، إلى الثقافة الصحراوية قريباً قد يصل إلى حالة من الاندماج بين أهل البحر وأهل البر. وهي ما جعلها مصدراً ثقافياً واحداً لأهالي قطر، ولقد توارث القطريون تلك الثقافة المشتركة أباً عن جدّ، واستمدوا منها رموزها ومضامينها وحكاياتها وأساطيرها تتناقله الأجيال فيما بينها، وانعكس ذلك في أشعارهم وأغانيتهم ورقصاتهم وملابسهم ومسمياتهم وسلوكهم اليومي وهيئة منازلهم وكافة جوانب حياتهم المعيشية.

لقد نتج عن تعامل الناس مع شؤون البحر فنونا غنائية وأهازيج ورقصات واحتفاليات خاصة عند ذهاب الناس في رحلات الغوص الطويلة وعند عودتهم. كما فعل التجار الذين كانوا يتاجرون مع شعوب ذات ثقافات متنوعة ويعودون بثقافات غير معروفة عند الأهالي المحليين، لكنهم قبلوا الكثير منه وكيفوه حتى أصبح جزءاً من ثقافتهم المحلية، وفي ذات الوقت ساهمت الصحراء بفنونها الغنائية وأشعارها وسلوكها العربي الأصيل في إثراء الثقافة الوطنية. لكن الثقافة القطرية وبعد اكتشاف النفط واشتغال أهل البحر وأهل البر بالمصدر الجديد للعمل والثروة واجهت تحدياً كبيراً في مواجهة الثقافات الجديدة القادمة مع الأفراد والمهاجرين الجدد أو مع المنتجات الحديثة. ولقد أثرت الثقافات الجديدة الوافدة على تقليص دور القبيلة المركزي مع تصاعد دور الحكومة المركزي عن طريق مؤسساتها التعليمية والثقافية والسياسية والاجتماعية،

وغيرها من مؤسسات أثرت على مركزية القبيلة وهيمنتها على أفرادها. كما بدأ اندثار الكثير من الحرف والمهن التقليدية التي كانت جزءًا من ثقافة المجتمع وانعكاس لحاجياته، بل أصبح هناك نفور واستهجان من أجيال النفط من العمل اليدوي، ومع ثورة وسائل الاتصال الجماهيري التي دخلت مع إطلاق أول محطة إذاعية وأول محطة تلفزيونية، ومن ثم الانفجار الإعلامي وانتشار الشبكة العنكبوتية ووسائل التواصل الاجتماعي، بدأ القلق من أن يفقد المجتمع أصالته وثقافته وتراثه مما أدى إلى مسارعة العديد من دول المنطقة بإنشاء مؤسسات ثقافية لاستعادة شيء من الثقافة التي أصبحت جزءًا من الماضي أو محاولة المحافظة على ما تبقى منها.

### إدارة الشأن الثقافي

لقد أدى شعور بعض أبناء قطر، بأن هناك تهديدًا يواجه ثقافتهم العربية والإسلامية وتأثر المجتمع بالمتغيرات السياسية والثقافية، إلى المبادرة بتنظيم جهودهم الثقافية والسياسية، ويعتبر نادي الطليعة الثقافي الذي أنشأه الدكتور علي الكواري مع عدد من زملائه عام ١٩٦٠ هو واحد من النماذج المهمة التي تؤكد على ذلك الاهتمام بالثقافة والسعي إلى تنظيمها وهي مبادرة أهلية خالصة وليست بمبادرة رسمية. وفي ذات الفترة قامت مبادرات ثقافية أخرى في مجال الفنون الموسيقية مثل إنشاء فرقة الأضواء الموسيقية وتأسيس المسرح القطري، بينما استمرت الفنون الشعبية بكافة ألوانها وأنواعها متواصلة ويمارسها الأهالي من خلال مقرات خاصة بهم، واستمر الأمر كذلك حتى أنشأت الدولة وزارة تهتم بالشأن الثقافي والفني. ويعود أول تنظم رسمي مباشر للشأن الثقافي بإنشاء إدارة الثقافة والفنون في العام ١٩٧٧، وكان تركيزها الأساسي على تنظيم الأنشطة الثقافية وتقنين دورها، خصوصًا تلك الأنشطة التي سبقت قيام الإدارة، وكذلك عملت على حصر الفنون والصناعات الحرفية لحفظ ما تبقى منها، واسترجاع ما يمكن استرجاعه. لكن كل ذلك كان يحدث في غياب استراتيجية أو خارطة

طريق، وارتبط الاهتمام بالشأن الثقافي الرسمي بالحماس الشخصي لمن يتولى إدارة هذا العمل، وترتب على ذلك عدم استكمال الكثير من المشاريع الثقافية التي بادرت بها وزارة الثقافة والفنون، مثل إنشاء مكتبة وطنية وإنشاء فروع لها. وتراجع النشاط المسرحي كما وكيفاً، وتوقف مشروع إنشاء فرقة الفنون الشعبية، وأُغلق متحف قطر الوطني لعدة سنوات، وأُلغي المسرح التربوي، وغاب منهج تعليم فنون الموسيقى في المدارس، وأوقف التدريب على صناعة الحرف اليدوية الشعبية. ويلاحظ أنه في السنوات الأخيرة حدث ارتباكٌ وتذبذبٌ تنظيمي في تحديد الجهة التي يجب أن تكون مسؤولة عن إدارة الشأن الثقافي، فلقد كانت تابعة لوزارة الإعلام ثم التحقت الثقافة والفنون بوزارة التعليم، وأعيدت بعد ذلك في إطار مجلس وطني للثقافة والفنون وأخيراً إلى وزارة مستقلة باسم وزارة الثقافة والفنون والتراث.

وعلى الرغم من قيام وزارة الثقافة والفنون إلا أنها ما زالت تتقاسم الشأن الثقافي مع جهة أخرى، مثل هيئة مستقلة للمتاحف، وتتبع لها مؤسسة للسينما، وجهاز يشرف على الفنون التشكيلية، وهناك أيضاً مؤسسة الحي الثقافي التي تحتضن بنية عمرانية جيدة من مساح ومقرات متعلقة بالثقافة والفنون، لكنها مستقلة في خططها ومشاريعها عن وزارة الثقافة، وهناك أيضاً مؤسسة سوق واقف التي لديها أيضاً خططها ومشاريعها الثقافية المستقلة. كما تملك مؤسسة قطر فرعاً موسيقية عالمية، وتدير أنشطة ثقافية بالشراكة مع دور نشر عالمية مثل دار نشر بلومزبري، وينظر البعض أنّ هذا التنوع يعمل على تنشيط الحراك الثقافي والفني في الدولة، بينما ينظر آخرون على أنه إضعاف لهذا الحراك في غياب جهة مركزية واحدة تنسق وتتابع هذا النشاط لصالح الدولة.

### استراتيجية التنمية الوطنية ٢٠١١-٢٠١٦:



انطلقت استراتيجية التنمية الوطنية ٢٠١١-٢٠١٦ من رؤية قطر ٢٠٣٠، وضمت عدد من المشاريع تحت ما يسمى النمو الثقافي في مجتمع إبداعي واستثنائي. وعند العودة إلى رؤية قطر ٢٠٣٠ يُلاحظ أنها اعتمدت على أربع ركائز أساسية هي التنمية البشرية والتنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية والتنمية البيئية، ليس من بينها الركيزة الثقافية رغم أهميتها في التنمية الوطنية. وأشار لها بطريقة عابرة ضمن ركيزة التنمية الاجتماعية. وهي المحافظة على التراث الثقافي الوطني وتعزيز القيم والهوية العربية الإسلامية. ولن أضيف وجهة نظر في تلك الاستراتيجية أكثر مما جاء به الدكتور علي الكواري والأستاذ عيسى الغانم في مداخلاتهما المنشورتان على موقع الدكتور علي الكواري الإلكتروني حيث اتفق معهما على إيجابيات وسلبيات استراتيجية التنمية الوطنية مع إضافة ما يلي:

١. لا يوجد ما يشير أنّ هذه الاستراتيجية انطلقت من أرقام ودراسات مسبقة تشخص الإشكالات وواقع الثقافة في قطر، لذلك جاءت أقرب للتمنيات منها إلى الحقائق مما قد يُعيق الأهداف والنتائج التي تتطلع لها هذه الاستراتيجية.
٢. تستهدف الاستراتيجية ما يُسمى بقطاع للثقافة، مما يعني أنّ هناك قطاعاً مركزياً يخطط وينفذ ما يتعلق بالشأن الثقافي، وهو أمر لا يتفق مع الواقع حيث أنّ الشأن الثقافي موزع بين عدة هيئات ومؤسسات بطريقة غير متجانسة، وتتداخل أدوارها وتخصصاتها مما سوف يعطل الكثير من المشاريع المشتركة فيما بينها. والدليل على ذلك أنّ الاستراتيجية تستهدف الأعوام ٢٠١١-٢٠١٦، وليس هناك ما يُشير بالبداية فيها حتى الآن.

إضافة إلى تلك المعوقات التي تواجه استراتيجية التنمية الوطنية، هناك أيضاً إشكاليات أخرى تواجه الثقافة والمنقف في قطر مثل:

(١) يُلاحظ على المشهد الثقافي في سنواته الأخيرة هيمنة الأنشطة الثقافية الأجنبية نوعاً وكماً، في مقابل أنشطة محلية محدودة أو شبه معدومة، ومعظم تلك الأنشطة تفتقد إلى تفاعل الجمهور القطري والعربي معها، إما لأنها لا تتناسب وذائقتة الفنية أو إنها مخالفة لعاداته وتقاليده.

(٢) غياب مشروع ثقافي وطني في مواجهة فتح الأبواب للثقافات الوافدة على مصرعيها سوف يؤدي إلى حالة من الإحباط للمبدع المحلي، لعدم قدرته على منافسة فنون وافدة تملك الإدارة والتقنية المتقدمة في إنتاجها، وقادمة من مجتمعات هوامش الحرية فيها واسعة، مما سوف يؤدي إلى انسحاب المبدع الوطني أو محاولته تقليدها مما يبعده عن ثقافته وهوية مجتمعه. وتبدو المسألة لديه كأنها دعوة إلى القفز على مبادئه وأصالته وترائه ليتبنى النموذج القادم مع تلك الثقافات الوافدة.

(٣) التبسيط في النظرة إلى تراث الماضي باستحضار مسميات قديمة تطلق على شوارع مع انتقائية ضيقة لفنون الغناء والرقص مما يقطع التواصل مع القديم أو حتى محاولة استثماره في رؤية جديدة للواقع.

(٤) تواجه الثقافة في قطر التنوع الثقافي القادم مع العمالة الوافدة والتي تُشكل نسبتهم أضعاف نسبة القطريين، فالثقافة المحلية غير قادرة على التأثير وغير قادرة على تقبل الثقافات الأخرى أيضاً، أو على الأقل انتقاء ما يثري ثقافتها. والقطريون حذرون في الثقة بالآخرين بنسبة ٧٩%، وبنسبة ٦% في أصحاب الثقافات الأخرى، و٤% في الأشخاص الذين يلتقون بهم أول مرة، وذلك حسب دراسة حديثة لجامعة قطر.

(٥) تواجه الثقافة القطرية عدم الوضوح في مسألة إلغاء الرقابة، وإطلاق حرية التعبير، فبينما تطلقه الدولة شعاراً وتعقد المؤتمرات من أجله وتنشئ مؤسسات للدفاع عن الديمقراطية

والتشجيع على حرية الإعلام والإعلاميين، إلا أنّ الإبداع المحلي يواجه تشدّداً من الجهات القائمة على إجازته مما يعطل الحراك الإبداعي الثقافي.

٦) غياب مؤسسات المجتمع المدني التي تعمل على نشر الإبداع الثقافي، وحفظ حقوق الكتاب والمبدعين، والدفاع عن حقوقهم، وتشجيع استقلالية المنتج الإبداعي بعيداً عن قواعد واشتراطات المؤسسات الرسمية.

٧) مع انتشار ازدواجية الثقافة اللغوية بين الأجيال الناشئة نتيجة عدم الاهتمام باللغة العربية وتمكين لغات أجنبية عليها، أصبح المحتوى اللغوي لمعظم هذه الأجيال خليطاً أو مزيجاً من لغة أجنبية أو أكثر يزاولها الجيل الجديد في تواصله اليوم، سوف يؤدي ذلك بالتحتمية إلى ازدواجية ثقافية، أو ما يُسمّى بالتثاقف أي أن تحل ثقافة مستبدة على ثقافة أضعف، ليس فقط في اللغة المنطوقة، ولكن حتى في أشكال التعبيرات الفنية الأخرى من مسرح وسينما وفنون تشكيلية وفنون الغناء والرقص وغير ذلك من فنون الإبداع مما سوف يؤدي إلى انقطاع بينه وبين ثقافته وقيمه الأصيلة.

٨) سوف يواجه المبدع والمثقف الملتزم بقواعد اللعبة الفنية وشروط الإبداع الخالصة صراع فكري وأخلاقي مع انتهازي ومدعي الثقافة المتمكنين من سلطة القرار، مما سوف يؤدي إلى انسحاب الفكر والإبداع الحقيقي وانزواء المثقفين أو استسلامهم للواقع المفروض.

٩) سوف يشكل انتشار وسائل الاتصال والتواصل الاجتماعي الحديثة، تحدياً للمبدع سواءً في نشر إبداعه أو توظيف هذه الوسائل في تطوير أدواته الإبداعية، لاسيما أنّ المؤشرات والدراسات العلمية تشير إلى أنّ هناك انسحاب تدريجي للأفراد من بين استخدام وسائل الاتصال التقليدية من كتاب وصحافة وسينما وغير ذلك، لصالح شبكة التواصل العالمية (الإنترنت).

(١٠) غياب الدراسات والبحوث التي يصدر عنها أرقام وإحصائيات تحلل توجهات الحالة الثقافية في المجتمع والتي تساعد المبدع والكاتب والمفكر في معرفة توجهات المجتمع، وصدى الجهود الثقافية، من أجل تحسين الأداء الإبداعي وتطويره. هذه نظرة عاجلة على الشأن الثقافي في قطر، والتي يحتاج كل عنوان فيها إلى بحث معمق ومدعم بالحقائق والأرقام. لذلك يمكن اعتبار هذه الورقة مقدمة استكشافية تمهد لدراسات قادمة أكثر تفصيلاً.

مرزوق بشير بن مرزوق

كاتب وباحث

الدوحة ٢٠١٢-٢-٦